وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المادة : علم الصوت

جامعة الانبار - كلية الآداب
أستاذ المادة : أ.د. علي حسين خضير

قسم اللغة العربية
(٢٠١٩ - ٢٠٢٠) الفصل الثاني

المحاضرة : (الثانية)

أولًا: (الانسجام الصوتي وفصاحة الألفاظ في اللغة العربية)

ينحو الخفاجي نحو ابن جني في التمييز بين الحرف والصوت فيقول :"وسميت الحروف حروفا ، لأن الحرف حدّ منقطع الصوت"، فمتى انقطع الصوت باصطدامه بحاجز ، ينجرّ عن ذلك الاصطدام الحرف الذي يختلف صداه باختلاف موضعه والأعضاء المشاركة في إصداره ، وقد ذكر هذا ابن جني عندما قال عن الحروف :"إن أجراسها تختلف باختلاف مقاطعها ".

فالحس المرهف الذي امتاز به ابن جني جعله يلتمس ميزات الصوت التي تفرز الحرف عند منتهى المقطع الذي يقف عنده الصوت ويواصل حديثه بقوله :"ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك ، ثم تبلغ به أيّ المقاطع شئت فتجد له جرسا ما ، فإن انتقلت عنه راجعا منه ، أو متجاوزا له ، ثم قطعت ، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأوّل ".

ونستنتج من هذا أن ابن جني أراد تأكيد الحرف بموسيقاه ، فعبّر عن ذلك بصدى الصوت الذي يتضح في اعتقاده واعتقاد الذين سبقوه بإضافة همزة مكسورة وتسكين الحرف ، ويبدو أن ما تعرّض له ابن جني في درسه للصوت وتحديده للمقطع لم يكن مقصودا لذاته ، كالحال مع الدراسات الفونولوجية العربية الحديثة التي لا نغفل قصورها فيما يصدر

من دراسات في النبر والتنغيم والظواهر الأدائية الأخرى ، يكاد ينعدم ، ولا سيما مع الافتقار إلى الإمكانات التكنولوجية وآلات التسجيل ومخابر الصوت .

ورتب القدامى الأصوات بحسب مخارجها ، التي لا تتجاوز الستة عشر مخرجا كما جاء عند كل من الخليل ، وسيبويه ، مثلت الأعضاء المعتمد عليها (الحلق ، اللسان، الحنك الأعلى ، الأسنان ، الشفتان ، الخيشوم).

أما الحنجرة والوتران الصوتيان فلم تُذكر البتة عند القدامى على الرغم من أهميتها في عملية إصدار الأصوات ، إذ تعدّ الحنجرة مستودع رنين الأصوات ، وبإهمال القدامى لهذين العضويين ، أُهملت معهما وظيفتهما عند تحديد كيفية صدور صوت ما ، إلّا أن الدكتور سعيد النعيمي بّرر ذلك بقوله إن الحلق عند القدامى له مفهوم يخالف مفهوم المحدثين إذ :"المراد بلفظ الحلق عند القدامى أوسع مما يراد به عند المحدثين حيث يدخل فيه الحنجرة والوتران".

وعلى غرار ما قاله (جان كانتينو Jane Cantineau) في هذا الشأن :"وأما الأوتار الصوتية فلا يبدو أن العرب عرفوها "، وتبدّى له ذلك مما جاء من شرح القدامى لصفات الأصوات (الهمس والجهر والشدة والرخاوة وما يتوسّطهما)؛ لأن لهذه الأوتار الصوتية والحنجرة الدور الفعّال في عملية إحداث الصوت وإصداره ، وهذا ما برهنت عليه الدراسات الحديثة أن للأوتار الصوتية الأثر الكبير في تحديد درجة الصوت المترتبة عما تستغله الحنجرة من فراغ رنان يحدّد الأصوات ولا سيما العميقة منها .

وكان تحديد الخليل للأصوات عامّا ، فذكر المخارج ووصف الأصوات دون أن يفرّق بين الصفات ، ودرجات الانفتاح ، بل جعل الكلّ في باب واحد فقال :

" اعلم أن حروف الذلق والشفوية ستة " ، وإنما سميت هذه الحروف ذلاقة ؛ لأن الذلاقة في المنطق ، إنما هي بطرف أسَلة اللسان ، والشفتين ، وهما مدرجا هذه الأحرف الستة . وأما سائر الحروف فإنَّها ارتفعَتْ فوق ظهر اللِّسان من لَدُنْ باطِن الثنايا من عند مَخْرَجْ التاء إلى مخرج الشين بين الغارِ الأعلَى وبين ظَهْر اللِّسان. ليس للِّسان فيهِنَّ عَمَلُ كثُر من تحريك الطبقتين بهنَّ، ولم ينحرفْنَ عن ظهر اللِّسان انحراف الرَّاء واللّام والنُّون. وأمَّا مَخْرَج الجيم والقافِ والكافِ فمن بين عكدة اللِّسان وبين اللَّهاة في أقصى الفَم. وأما مَخْرَجُ العين والحاء و (الهاء) والخاء والغين فَالْحَلْقُ وأمّا الهَمْزة فَمَخْرَجُها من أقصَى الحَلْق مَهْتُوتة مضغوطَة فإذا رُفِّه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف عن غير طريقة الحُروفِ الصَّحاح".

وواضح من هذا القول أن الخليل قد فرقّ بين الهمزة بحسبها صوتا صحيحا وبين الياء والواو والألف باعتبارهما أصوات مدّ ولين ، وحاول جمع كلّ خصائص الصوت العربي ، وقد وفق في اختيار بعض المصطلحات التي وضعها كالذلاقة واللهاة ...، فمصطلح الذلاقة مثلا يعني :" جودة نطق اللسان وانطلاقه أثناء الكلام ".

ويلتقي هذا مع الانسجام الصوتي وفصاحة الألفاظ حين تدخلها هذه الأصوات الذلقية ، وسبب التسمية يرجع إلى كثرة شيوع مثل هذه الأصوات في اللسان العربي أكثر من غيرها من الأصوات لما تحمله من خصائص جمالية ؛ ولذلك أسماها المحدثون بأشباه

أصوات اللين ، وقصدوا بذلك شيئا شبيها بالإيقاع تعكسه اللغة العربية من خلال الطابعين المهمين ، الموسيقى والإنشاد الّذين جعلا الدكتور تمّام حسّان يرى أنهما من العناصر الضرورية لنظامي النبر والتنغيم في اللغة العربية .

ثانيا : (آلية الصوت عند العرب)

وما ذهب إليه العرب في تقسيم صفات الأصوات وتصنيفها وتحديدها دليل على الدقة التي تتمتّع بها الأذن العربية في التمييز بين صدى الصوت (نغمة موسيقية أساسية) ، وبين الأصداء الثانوية له (نغمات موسيقية ثانوية) هذا ما جعل ابن جني – وهو الأول في ذلك – يشبّه جهاز النطق بالآلة الموسيقية عند إنتاج الصوت فيقول : "فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا ، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة ، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة".

وقد أراد ابن جني بهذا التمثيل الإصابة والتقريب ، وذلك عندما شبّه الحلق والفم بالناي ، وهذا ضرب من علم الموسيقى كما صرّح بقوله :" ولكن هذا القبيل من هذا العلم، أعني علم الأصوات والحروف، له تعلق ومشاركة للموسيقى، لما فيه من صنعة الأصوات والنغم ".

ولهذا قال محمود السعران أن الجهاز النطقي : " أكمل آلة موسيقية من حيث المرونة ومن حيث الإمكانيات أعني من حيث القدرة على إخراج أنواع الأصوات التي لا حدّ لها". والذي يعنينا هو أن

علماء العربية القدامى بيّنوا أن الصوت لا يتم إلّا بالتقاء عضوين من أعضاء النطق ، فيقول سيبويه – مثلا- أن حدوث النون :" من طرف اللسان وما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فُويق الثنايا".

ولعل تحديد مواضع النطق بهذا الشكل يكشف لنا عن دقة كبيرة في وصف عملية إصدار الأصوات ، إلّا أنهم توقفوا عند هذا الحدّ ظنا منهم أن النشاط الجمالي للصوت العربي يتوقف عند تحديد أعضاء النطق ووصف صدى الصوت .

وتكمل الدقة عند القدماء في حديثهم عن التقاء العضوين ، فإذا تمّ الاتصال المحكم بينهما نتجت الأصوات الشديدة كما أسموها والتي اصطلح المحدثون على تسميتها بالأصوات الانفجارية .

والصوت الشديد عند سيبويه : " هو الذي يمنع الصوت أ، يجري فيه"، إذا التقى عضوان وتركا بينهما منفذا نتجت الأصوات الرخوة المنحصرة في (الهاء ، والحاء ، والغين ، والخاء ، والشين ، والصاد ، والضاد ،والزاي ، والسين ، والظاء ، والثاء ، والذال ، والفاء)، وذلك إذا قلت الطس وانْقَض ، وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت ، وأما العين فبين الرخوة والشديدة ، تصل إلى الترديد فيها لشبهها بالحاء ومنها (المنحرف)، وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت ، ولم يعترض على الصوت اعتراض الحروف الشديدة ، وهو اللام ، وإن شئت مددت فيها الصوت".